الشيخ الطريفي لُغَوِياً وشاعراً

د. محمد عمر دولة (★)

مقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله، وعلى آلِه وصَحبِه ومَن والاه. وبعد، فما أشبَهَ الشيخَ محمد علي الطريفي رَحِمَه الله بالروضةِ الفَيحاء والحديقةِ الغنَّاء، التي يفُوحُ عِطرُها من كلِّ مكانٍ، وينتَشِرُ شَذاها مِن شَتى الأفنان؛ فقد كان فقيهاً عارِفاً، ومُفسِّراً حاذقاً، ومُفتياً وَرِعاً، فهو لُغَويٌّ بارِعٌ، وشاعِرٌ مُجِيدٌ، وأديبٌ أريبٌ رَحمهُ الله عليه.

كالبدرِ من حيث التفَتَّ رأيتَه ... يُهْدِي إلى عينيك نُوراً

كالشمسِ في كَبَدِ السماءِ ... ثاقِباً!

وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا!

كالبحرِ يقذِفُ للقريبِ جواهِراً ... جُوداً ويبعَثُ للبعيدِ سحائبا[1]

فهذا البحث لبيان جوانبَ مِن موسُوعيةِ الشيخ الطريفي رحمه الله، الذي عرَفتُه: عالِما عامِلا، وداعِيةً مُربِّياً، وأديباً شاعِراً رَحِمَه الله تعالى. وقد كان حمَّادُ بن زيد رحمه الله يقول إجلالاً لشيخِه شعبةُ بن الحجاج رَحِمَه الله كما في (تذكرة الحفاظ) للذهبي:

حدَّثنا الضَّخمُ عن الضِّخام ... شُعْبَةُ الخيرِ أبو بِسْطامِ

ورَضِيَ الله عن عُمرَ الفاروق؛ فقد تمنَّى رجالا عُظَماء يُعَطِّرون المجالِس ويُعمِّرون الحياة، كما روى الذهبي رحمه الله في (سير أعلام النبلاء) عن محمد بن سعد قال: حدثنا أحمد بن عبد الله حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نَجِيح قال: قال عمرُ لجلسائه: تَمَنَّوا! فتمنَّوْا. فقال عمرُ: لكني أتمنى بيتاً مُمتلئاً رجالاً مثلَ أبي عبيدة بن الجراح".[2]

وقد كتبتُ هذا البحث؛ لإحياءِ قيمةِ القُدْوَة في حياتِنا؛ فقد كان الشيخُ

(★) مدير الإدارة العلمية بجمعية القرآن الكريم، ورئيس تحرير مجلة بصائر المحكَّمة

([1]) الأبيات للمتنبي، وانظر شرحَها في (شرح ديوان المتنبي للواحدي) ٩٠/١.

([2]) سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/١.

الطريفي رَحِمَه الله قُدوةً في العِلمِ النافِعِ والدَّعوةِ الحكيمةِ والمَوعِظةِ الحَسَنة، وقُدْوةً في العَمَلِ الصالح، وقُدوةٌ في الصِّلاتِ الاجتِماعية ونفعِ الناسِ وتعليمِهم والإحْسانِ إليهم والعِنايةِ بهُمُومِ الأُمةِ وتوْعِيَةِ الناسِ بقضاياها.

أسألُ الله العظيمَ ربَّ العرشِ الكريمِ أنْ يَنفَعَ بهذه الكلمات، ويتقبَّلها في الأعمالِ الصالِحات، وأنْ يجعلَها سَبباً لِمَرْضاةِ الله عزَّ وجل والدلالةِ على فَضلِ العُلماءِ وبرَكةِ صُحبَتِهم، وأنْ يكتُبَه في العِلمِ الذي يُنتَفَعُ به في الحياةِ وبعد الممات؛ إنَّ ربي سميعٌ قريبٌ مُجيب الدعوات.

المبحث الأول

الشيخ الطريفي واللغة العربية:

لَمَّا كان الكلامُ عن الصالحين لا يُمَلُّ، فالحديثُ عن الشيخ الطريفي مَعِينٌ لا يَنْضَب؛ فمَهما أطالَ المرءُ فيه النَّفَسَ فإنه لم يُسْهِبْ ولم يُطنِبْ!

أتاك حديثٌ لا يُمَلُّ سماعُهُ حبيبٌ إلينا نثرُه ونظامُهُ

إذا سمعَتْهُ النفسُ زال عناؤها وزال عن القلبِ المُعَنَّى ظلامُهُ

فالشيخُ الطريفي رَحِمَه الله قد اشتهَرَ بالعِلمِ وبه عُرِف؛ حتى صارَ بقيَّةً مِن السلف؛ فقد كان أُمةً رفيعَ القَدْرِ وأُعْجُوبةَ الدَّهر، وأُنمُوذَجاً للعلماءِ العامِلِين والدُّعاةِ المُفلِحين.

وقد كان الشيخُ رَحِمَه الله ينتقي أطْيَبَ الكلِماتِ وأحسنَ العِباراتِ وأشرَفَ المعاني والمُفرَدات؛ فكأنما كان له (قامُوس) خاصٌّ به؛ يستمِدُّ منه عِلمَه الزاخِرَ وأدبَه الوافِر؛ فقد كان الشيخُ الطريفي (قطر النَّدَى وبلَّ الصَّدَى) و(لسان العرب) و(معجم المقاييس) رحمة الله عليه.

وإنَّ (قامُوس) الشيخ الطريفي رَحِمَه الله يُحْيي في القُلوبِ مَحبة لِسانِ العرب، ويُعظِّم لغة القرآن ولسانَ الشرع؛ فقد كان الشيخُ في ذلك غريباً فريداً في عصرٍ فُتِنَ الناسُ فيه بالألسُنِ الأعجمية واللغاتِ الأجنبية؛ كأنما لِسانُ حالِه ما قالَه ابنُ منظور في مقدمة (لسان العرب): "كتَبتُه في زَمنٍ أهلُه بغيرِ لُغتِه يفخَرُون،

وصنَعتُه كما صَنعَ نوحٌ الفُلكَ وقومُه منه يَسخَرُون"!

وقد كان للشيخ الطريفي رَحِمَه الله غَيرةٌ عظيمةٌ على اللغة العربية؛ ولا عَجباً فهو من بقايا الجيل الذي تربَّى في رياض (المعهد العلمي)، ونَهَلَ من مَعِين (الأزهر الشريف) في أيام ازدِهارِه.

وإنْ نَسِيتُ لا أنسَى قولَ الشيخ الطريفي بِحَسْرةٍ وحُرْقةٍ: "واللهِ يا ابنَ عُمَر إني لأسمَعُ الكلمة من اللغة يلحَن فيها الرجل؛ فأجِدُ وَقْعَها في قلبي مِثلَ وَقْع الحَجر يشجُّ رأسي"! وذلك أمرٌ طُبِعَ عليه الشيخُ العلامةُ رَحْمةُ الله عليه؛ يعلم ذلك كلُّ مَن صَحِبَ الشيخ الطريفي؛ فهو لا يرضى أن يُلحَنَ بين يدَيْه؛ فتراه يُسارِع في تصحِيح اللغات وتقويم العثَرات؛ حتى أُثِرَ عنه جُمَلٌ طريفةٌ لم تُؤثَرْ عن غيرِه من العلماء؛ كأنما اختارَه اللهُ لِحِفظِ لغةِ القرآن في السودان؛ وليت شِعري مَن لم يسمعْ بقول الشيخ الطريفي رَحِمَه الله: "لا تَقُلْ: (زادَ الطِّينَ بَلَّة) بفتح الباء، ولكنْ قلْ: (زاد الطينَ بِلَّة) بكسرِها. ولا تقلْ: (حَشَفاً وسُوءَ كَيْلة) بفتح الكاف، ولكنْ قُلْ: (حشفاً وسُوءَ كِيلة) بكسرِها. ولا تقُلْ: (مكتب القُبُول) بضمِّ القاف، ولكنْ قُلْ: (مكتب القَبُول) بفتحِها. ولا تقُلْ: (حَوْجة) ولكنْ قُلْ: (حاجة)".

ومما تفرَّدَ به الشيخُ الطريفي رَحِمَه الله عِنايتُه بفنِّ الاشتِقاق؛ حتى كأنك حينما تستمعُ إليه تُطالِع (مُعجمَ مقاييس اللغة) لابن فارس؛ فهو يشتقُّ من أسماءِ طلابِه ما يُوافِق صفاتِهم التي ربَّاهم الشيخ عليها، وهو القائل عن أخصِّ تلاميذِه: "حافِظٌ مَحفُوظ". فقد أحيا رَحِمَه اللهُ فُنونَ أهلِ العِلمِ مِن اشتِقاقِ الصِّفاتِ من الأسماء، كقولِهم في (مُسَدَّد بن مُسَرْهَد): "مُسَدَّدٌ كاسْمِه"، وقولِهم في (ثابت البُناني): "ثابتٌ كاسْمِه"، كأنَّ بين عَينَيه قولَ الشاعر:

وقَلَّما أبْصَرَتْ عيناكَ مِن لَقَبٍ ... إلا ومعناهُ إنْ فَكَّرْتَ في لَقَبِهْ!

وذلك مِن هَدي النبيِّ ﷺ الذي علَّمَنا أنّ للأسماءِ ارتِباطاً بالمُسَمَّياتِ؛ حتى إنّه ﷺ أمَرَ (حَزْناً) جدَّ سعيد بن المسيَّب أن يُغيِّر اسمَهُ؛ كراهيةً للحُزونة، وهي الصُّعوبة في الأخلاق، حين قال له: (ما اسمُك؟ قال: حَزْنٌ. قال: بل أنتَ سَهلٌ)، وقد ترجمَ البخاريُّ في كتاب (الأدب) من (الجامع الصحيح) لهذا الحديث باب (تحويل الاسم إلى اسمٍ أحسنَ منه).

فهذا الأدبُ النبوي الذي يعتني بمعاني الأسماء كاد أنْ يَندثِرَ مِن ثقافتِنا المعاصِرة؛ ولذلك اهتمَّ به الشيخُ الطريفي رَحِمَه الله، وعمِلَ على إحيائه؛ تأسِّياً بالنبيِّ ﷺ الذي غيَّر اسمَ مَدينتِه مِن يثرب إلى طيبة، قال ابنُ القيم في (زاد المعاد):

"غيَّرَهُ بـ(طيبة) لمَّا زال عنها ما في لفظ (يثرب) من (التثريب)، بما في معنى (طيبة) من (الطِّيبِ)؛ استحقَّتْ هذا الاسم وازداداتْ به طِيباً آخَرَ؛ فأثَّر طِيبُها في استحقاق الاسم، وزادها طِيباً إلى طِيبِها!"

ولذلك ترى الرجلَ من عامة المسلمين مِمَّنْ لم يَعرفْ في حياتِه نحواً ولا صرفاً يزور الشيخ الطريفي، فيُقبلُ عليه الشيخُ بكلِّ عنايةٍ يُحدِّثه برفقٍ ولُطفٍ عما يُفيدُه اسمُه من المعاني، وربما أخبرَه عن اسمِه: منقولٌ أم غيرُ منقول؟ وله في كلِّ ذلك نقدٌ وذوقٌ وخِبْرةٌ ودُرْبةٌ ومُراعاةٌ لِلمُناسَبات؛ كما قيل:

سَـــمَّوهُ بـــــدراً وذاك لَمَّـــــا ... أنْ فـــاقَ في حُسْنِه وتَمّـــَا

وأجْـمَـــعَ الـــناسُ إذْ رأوهُ ... بأنه اســـمٌ على مُـــسَمَّـــى!

وتراه رَحِمَه الله إذا طُلِبَ إليه تَسمِيةُ غلامٍ؛ اختار أعجَبَ المعاني وأعذَبَ المباني، وقد سأله بعضُ الفضلاء أن يختارَ اسماً لبنتٍ وُلِدَتْ له؛ فأطرقَ الشيخُ قليلاً، ثم قال: "رزانٌ كأمِّنا عائشة رضي الله عنها، فقد قال في شأنِها حسان:

حصـــانٌ رَزانٌ مـــا تُـــزَنُّ بريبـــةٍ ... وتُصبحُ غَرْثَى مِن لُحـُومِ الغوافِلِ!

وأما كَلَفُه بالشِّعرِ وذوقُه للأدب، فأمرٌ لا يكاد يُدانيهِ فيه أحدٌ مِمَّن أعرفُهم من أهلِ السودان؛ فهو يُنْصِتُ إليك بقلبِه ويُصْغي إليك بسَمعِه؛ وله في ذلك نَقدٌ مَلِيحٌ وذوقٌ صحيحٌ؛ و(تحت الرغوةِ اللبنُ الفصيح)! فتراه إذا سمع البيتَ العذبَ الجميلَ ـ ولو من أصغرِ طُلابِه ـ استعادَه مرتين أو ثلاثاً حتى يحفظَه رحمةُ الله عليه، وذلك في أبياتٍ كثيرةٍ منها قولُ الشاعر:

وإنـــي لَمُشـــتاقٌ إلـــى ظـــلِّ صـــاحبٍ ... يَرُوقُ ويَصفُو إن كَدَرْتُ عـــليه!

وقول الآخر:

إذا مَرِضْـــنا أتَينـــاكم نَعُـــودُكُمُ ... وتُذنِبُـــون فنأتيكـــُم ونَعـــتَذِرُ!

ولقد كان أحبُّ الشِّعرِ إليه ما كان عَذباً سَلِساً حَافِلاً بِفُنونِ البلاغة وكان مطبُوعاً غيرَ مُتكَلَّفٍ. ولا أنسَى يومَ أنشَدتُه قولَ الشاعر وقد أورَدَه العلامةُ الشنقيطي في (نثر الوُرودِ على مراقي السعود):

ليلِي وليلَى نَفَى نومِي اختِلافُهما ... في الطُّولِ والطَّوْلِ[1] طُوبَى لي لو اعتَدَلا!

بالطَّوْلِ ليلَى وإنْ جـــادتْ به بخلا!

([1]) الطَّول بفتح الطاء: القدرة والاستطاعة والتمكن من الشيء.

يَجُودُ بالطُّول ليلي كـــلما بَخِلـــَتْ

فانتَفَضَ الشيخُ الكبيرُ الوَقُورُ رَحمةُ الله عليه [كما انتفَضَ العُصفورُ بَلَّلَه القطرُ]، وطَفِقَ يُردِّدُ البيتين دون ملالةٍ ولا سآمةٍ، رحمة الله عليه.(١)

وللشيخ رَحِمَه الله عنايةٌ خاصةٌ بأشعارِ المُلَحِ واللطائفِ؛ فقد كان يُرَوِّحُ بها عن نفسِه وعن إخوانِه وطُلابه، فتراه يتهلَّلُ وَجهُه وينشَرِحُ صَدرُه ويضحك حتى تبدو نواجِذُه وهو يستمع إلى قولِ الشاعر:

يـا رب زوِّجـــني عجـــوزاً كـــبيرةً فـلا جَدَّ لـي يـا رب فـي الفتيـاتِ!

تُحَدِّثني عـــمَّا مضـــى من شبـــابها وتُطْعِمُني من عُكْمِها(٢) تَمَراتِ!

وإن تَعْجَبْ فعَجَبٌ رؤيةُ الشيخ الطريفي وقد ظَفِرَ ببيتٍ مِن عُيونِ الشعر؛ فكأنَّ قلبَه يُحَلِّقُ مع سِرْبِ القَطا، وإذا استمعَ إلى قصيدةٍ بديعةٍ حسناء فكأنما حِيزَتْ له الدنيا! كقول طفيل الغنوي:

أخٌ لـــك مـــا تـــراهُ الـــدَّهرَ إلا علـــى العِـــلاتِ بسَّـــاماً جَـــوادا

سألْـــناه الجـــزيلَ فـــما تلكـــَّأ وأعطـــى فـــوقَ مُـــنْيَتِنا وزادا!

فأعـــطى ثم أعـــطى ثم عُدْنا فـأعطـــــى ثم عُدْتُ له فعادا!

مِـــراراً مـــا أعُودُ إلـــيه إلا تبسَّمـــَ ضاحِـكاً وثَنَى الوسادا!

ولعلَّ هذا الذوقَ الأدبيَّ الرفيعَ هو الذي حبَّبَ إلى الشيخ الطريفي (ألفية) ابن مالك في النحو والصرف؛ لاشتمالِ شواهِدِها على المعاني الطريفة والمباني اللَّطيفة، كقول ابن مالك في (الخبر):

---

(١) فلا تتصور سعادةَ الشيخ الطريفي إذا ظَفِرَ ببيتٍ رائقٍ من الشعر أو لطيفةٍ من لطائفِ العلم النافع المبارَك! وسُبحان الله كأنَّما حَباه الله عزَّ وجل بالتمتُّع بحلاوةِ الأدبِ الرفيعِ لِزُهْدِه وتقلُّلِه من الدنيا؛ فعوَّضَه الله عزَّ وجلَّ بحلاوةِ العلمِ التي حُرِمَ منها كثيرٌ من المُقبِلين على الدنيا والمُعرِضين عن العلم والدين! ولله درُّ سفيان الثوري حيث قال: "لا يَجْتَمِعُ فَهْمُ القُرْآنِ والاشْتِغالُ بالحُطامِ فِي قَلْبِ مُؤمِنٍ أبَداً". البرهان في علوم القرآن ٦/١. وقال الزركشي: "قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: (سأصْرِفُ عَنْ آياتي الذين يَتَكَبَّرُون في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ) الأعراف ١٤٦، قال: أحْرِمُهُمْ فَهْمَ القُرآن". البرهان ٦/١. وقال ذو النون المصري: "أبَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ إلا أنْ يَحْرِمَ قُلُوبَ البَطَّالِينَ مَكْنُونَ حِكْمةِ القُرآن". البرهان ٧/١. وقال الزركشي رحمه الله: "مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ وفَهْمٌ وتَقْوَى وتَدَبُّرٌ؛ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ لَذَّةِ القُرْآن شَيْئاً!" البرهان في علوم القرآن للزركشي١٧١/٢.

(٢) العُكْم: هو الوعاءُ الذي تحتفظُ فيه المرأةُ بأشيائها الخاصة.

والخبـــرُ الجـــزء المُـــتِمُّ الفـــائدة — كـ(الله بَـــرٌّ والأيـــادي شـــاهِدة)
وخَبـــــرَ المَحصـــُور قـــدِّمْ أبداً — كـ(مـــالَنا إلا اتباعُ أحـــمدا)

وقوله في (كان):
وقـــد تـزاد (كان) في حَشْـــوٍ كـ(ما — كـــان أصَحَّ عِلْمَ مَـن تَقـــدَّما

وقوله في (تعدّي الفعل):
والأصـــــلُ سَـــبقُ فاعـــــلٍ مَعنًـــى كـ(مَنْ) — مِن (ألْبِـسَنْ مَن زارنا نَسْجَ اليمن)

وقوله في (نِعْمَ وبِئْسَ):
وإنْ يُقَـــدَّمْ مُشْـــعِـــرٌ به كـــفَى — كـ(العـلمُ نِعْمَ المقْتَنَى والمقـــتَفَى)

وإني لَيُخَيَّل إليَّ أنَّ بين الشيخ الطريفي وبين (ألفية ابن مالك) تشابُهاً مِن جهةِ سَعةِ العلوم والإحاطة بالفنون، فقد كان الشيخ رَحِمَه الله موسُوعةً:

تُقرِّبُ الأقصـــَى بلفـــظٍ مـــُوجزٍ — وتبسُـــطُ البذلَ بوَعْـــدٍ مُنجزِ!

وما أعلَمُ أحداً جَمَعَ من حُبِّ العربية والتمكُّن في فُنونِها وآدابِها وتعليمِها في المساجدِ والالتزامِ بها في سائرِ كلامِه ما بلَغَ الشيخُ الطريفي رَحِمَه الله فَهماً وذَوقاً وحِفظاً؛ وإنْ كان بعضُ الناسِ أشهرَ منه؛ ولكنَّ الله خصَّ به مَن شاء مِن طُلابِ العلمِ! وقد ذكرَ لي رحمه الله أنه حفظ (شواهِد الأشموني) على الألفية في ذهابه إلى الأزهر وإيابه منه!

وما ظنُّك برجلٍ بلغ الذروةَ في معرفةِ مَعاجِمِ اللغةِ، وقواعِدِ النحوِ والصرفِ، وفُنون البيان والبديع والمعاني، وأوزانِ العروضِ، وألوان الأدبِ والشعر والنثر والأمثال، وجَمعَ الطبعَ السليمَ واللِّسانَ القويمَ والقلبَ الرحيم، مع صِدقٍ في العاطفة ورقةٍ في الحاشيةِ! رَحمةُ الله عليه.

وإنما لم ينَلْ من الشُّهرةِ ما نال غيرُه مِمَّن لا يبلُغ مَرتَبتَه؛ لِزُهْدِه في وسائلِ الإعلام، وإيثاره المَساجِدَ وحِلَقَ العِلم، وحِرصِه على تعظيمِ العِلمِ وصَوْنِه عما يشينُه، وهذا من اجتهادِه وعِنايتِه بإعطاءِ العلومِ لأهلِها، كما ترجَمَ البخاري في كتاب (العلم) باب (مَن خصَّ بالعلمِ قوماً دون آخرين). وما كان عِلمُ العربية عند الشيخ الطريفي مجرَّدَ ثقافةٍ أو فنٍّ لِلَّهو والسَّمَر. وإنما كان غرساً للأخلاق القويمة، وتزكيةً للأنفس الكريمة؛ ولذلك سُرَّ في آخرِ حياتِه غاية السرور حينما قرأتُ عليه (الدُّرة البَهية في نظم الآجرومية) لشرف الدين العمريطي؛ لما تضمَّنَتْه من الأخلاقِ الجليلة والآدابِ الجميلة، مثل قوله في (ظنَّ وأخواتها):

كقـــولهـــم (ظنـــنتُ زيداً مُنْجِداً) (واجعـــَلْ لنا هذا المكانَ مسجِداً)

وقوله في النداء:

كـــ(يـا عـــليُّ يـا غـلامُ بـي انطلِـقْ) (يـــا غـــافِلاً عـــــن ذِكْـــرِ ربِّـــه
(يا كاشِـــفَ البلوى ويا أهـــــلَ الثَّنا) أفِـــقْ!)
و(يا لطـــيفاً بالعبادِ الطُـــفْ بِنا!)

وقوله في (العطف):

كـــ(جـاء زيـد ثـم عمـرو) و(أكْـرِم زيـــــداً وعمـــــــراً باللّقـــــا
وفئـــــة لم يأكُـــلُوا أو يحضـــُروا والمـــــطـــعَمِ)!
حتـــــــى يفـــــوتَ أو يـــــزولَ
المُنـــــكَرُ!

ولكنه مضى إلى ربِّه.. ولم يُكْمِلْ مِن شَرْحِها إلا الثُّلث، رَحمةُ الله عليه.

ومضَـى الزمـانُ ومـا انقَضَـى وَطَـرِي والنفسُ تأمُلُ والحوادِثُ بكـــم تـــعرضُ!

فوالله لَيَوْمٌ من الشيخ الطريفي خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ وقد يعجَبُ مِن هذا مَن لم يَعرِفْ! ولكن (ليس الخبرُ كالمُعايَنة) و(ليس راءٍ كمن سمعا)؛ وقد صدق جرير حين قال:

لا بارك الله في الـدنيا إذا انقـــطَعَتْ أسبابُ دُنياكِ عن أسبـــابِ دُنيانا!

فقد فضَحَ موتُ الأخيار هذه الدنيا الزائلة، وأيقظ المغرُورين، كما تَرْجَمَ البخاري رَحِمَه الله في كتاب (الرقاق) باب (ذهاب الصالحين). وذكرَ من أوائل الأحاديثِ في الرقاق حديث أنس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: (اللهم لا عَيْشَ إلا عيشُ الآخرة)! وقد سبَقَنا الشيخ رَحِمَه الله بالرحيل.. وتركَنا بلا جَناح، وقد كنتُ أُنشِدُه:

أسِرْبَ القَطا هـــل مَن يُعيرُ جَنـــاحَه لعـــلّي إلى مَن قد هَـــويتُ أطِيرُ!

فيُجِيبُني رحمةُ الله عليه:

وأي قـــطـــاةٍ لم تُعِـــرْك جَناحَها تعيـــشُ بذلٍّ والجـــناحُ كسيرُ!

المبحث الثاني

الأغراض الشعرية لقصائد الشيخ الطريفي

لقد كان الشيخ الطريفي لغوياً فَذّاً، وشاعراً مُجِيداً وأديباً أريباً رحمهُ الله عليه. وقد تنوَّعَتْ أغراضُ شعره،[1] وتعدَّدَت مناسباتُ قصائدِه، ضاربةً في أوديةِ العُمر، وشعابِ السنين.

فقد قرَضَ الشعرَ وهو غلامٌ يافِعٌ، يرتع في حياضِ معهد أم درمان العلمي، ويغرف منه العلوم النافعة، فقال وهو يُحيِّي أحد مؤتمرات المعهد العلمي في قصيدته الميمية: (تحية المهرجان الثالث):

لِلمهرَجانِ تحيةٌ وسلامٌ فله علينا حُرْمةٌ وذِمامُ!
لَمَعَتْ أشعَّتُه الجميلةُ في الدُّجَى تُخفي ضِياءَ البدرِ وهو تَمامُ!

وذلك تضمِينٌ بديعٌ لقولِ الشاعر:

وإذا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ محمداً فظُهورُهنَّ على الرجالِ حرامُ
قرَّبْنَنا مِن خيرِ مَن وَطِيءَ الثَّرَى فلها علينا حُرْمةٌ وذِمامُ

وفي هذا التضمينِ دلالةٌ على حفاوةِ الشيخ بهذا المهرجان الذي خاطبَه بقولِه:

يا مهرجانَ العلمِ جئتَ مُبَلِّغاً لرسالةٍ ضَنَّتْ بها الأيامُ
فحللتَ بين صُفوفِنا ورواقِنا سَهلاً رَحِيباً فاحَ فيه خُزامُ

ثم بَيَّن رَحِمَه اللهُ فضلَ (المعهدِ العلمي)، وأثرَه في تربيةِ الأجيال، وقد خصَّ من ذلك الحِفاظَ على اللغة العربية لسان الشرع الحنيف، وإحياء العلوم الشرعية، وكذلك عناية المعهد بالوظيفة التربوية، فقال:

نشرَ الثقافة في البلادِ جميعِها فتنوَّرَتْ بِعُلومِه الأحلامُ
صانَ اللِّسانَ عن الفسادِ حِمايةً وأبان شرعاً للعبادِ يُقامُ
ضمَّ الهُدَى والعِلمَ تحت ظِلالِه وغَدَتْ صُنوفُ البرِّ فيه تُسامُ

وقد أحسنَ الشيخُ التعبيرَ عن مشاعره الحميمة التي يُكِنُّها نُجاهَ (المعهد) الذي تربّى فيه، فقال:

---

(1) وقد اعتمدتُ صورةً خطية من ديوانه جَمَعَها الشيخ د.حافظ عبد الرحمن تلميذ الشيخ الطريفي، وهو يستعد لطبعه في الإمارات.

يـا مَعهـدي يـا مَـن أَلِفْـتُ رُبُوعَـه يـا مَـن بِسِـيرتِه يَطيـبُ كـلامُ
قد أمَّكَ الـرُّوَّادُ مِن أقـطـارِهـم ونَمَى بحقلِك راشِـدٌ وغـلامُ
جَ هـلِئك أقـوامٌ تعامَـوا جَهْـرةً وضِـياءُ نُورِك لامِـعٌ بسّـَامُ!

وما أحسَنَ قولَه البديع:

مـا أظْهَرَتْـك رِسـالةٌ أدَّيْتَهـا بل أظهَـرَتْك لـدَيْهم الأيتامُ!
هذا لَعَـمري مَـوقفٌ مُسـتغرَبٌ يَبكِيهِ طَـرْفٌ دامِعٌ مِسْـجامُ!

ولا يخفى على القارىء هذا (القامُوسُ) اللغوي والأدبي عند الشيخ الطريفي الذي يَتَّسِمُ بالرَّصانةِ والفصاحة؛ مما يُبَيِّنُ إجادتَه للصُّوَرِ الشِّعريَّة وعُمقَ مَعرفتِه باللغة العربية وسعة اطِّلاعِه على المعاجِم في ذلك العُمرِ المُبكّر:

فيـك البلاغـةُ أوْرَقَـتْ أشـجارُها وعُلُـومُ تشـريعٍ بهـا أحكـامُ
وفُـنونُ آدابٍ سَمَـتْ أفـنانُها وتفتَّحَـتْ برياضِـها الأكـمامُ
وجَمَـعتَ كـلَّ طريفةٍ وتليـدةٍ من كـلّ فـنٍّ يُبتغَى ويُـرامُ

ويُلاحَظ في هذه القصيدة تأثُرُ الشيخ الطريفي بالأساليب العربية القديمة؛ وذلك أمرٌ مألوفٌ فيما يكتبُه الشعراءُ في مَطلعِ حياتهم، مثل قوله:

للمعهـدِ العِلمـيِّ فَضـلٌ ثابـتٌ قـد آمنَـتْ قُـدُماً بـه الأقـوامُ
وبه لِسِـيماءِ الجَـلالِ مَـهـابةٌ وبه رِجـالٌ سـادةٌ أعْـلامُ
فتحيةٌ عُـظمـى إلى أسـتاذِنا ما طَـلَّ أزهـارَ الرياضِ غَـمامُ

وللشيخ الطريفي رَحِمَه الله براعةٌ في المدحِ والثناءِ؛ فقد جُبِل الشيخُ على رِعايةِ الوُدِّ وحفظِ العَهد وشُكرِ مَن أحسنَ إليه.

ويظهر ذلك في قصائدَ عِدَّةٍ، منها: قصيدة (تحية شُكر لأهلِنا بحلفاية الملوك)، التي مطلعها:

حلفايـة المجـدِ دُومـي للعُـلا أبـدا وطاولِي الشمسَ فخراً في تساميها
عَلَوتِ شـأنـاً ومِقـداراً ومنـزلةً وحُزتِ مَرتبـةً عَزَّتْ مَراقِيها

وتفوحُ من القصيدة مَحبةٌ صادقةٌ ووُدٌّ خالِصٌ، كما في قولِه رَحِمَه الله:

هــذي رِحابُــكِ بالأخيــارِ عــامِرَة ... وبالأماجِــدِ فــي شــتَّى نَواحيهــا
سَمَــوْتِ حقّاً بأعــلامٍ جــهــابذة ... لهــم مآثِرُ أضحى الكــلُّ يرويها
أمثال أستاذِنا عــون الشــريف وقد ... شَــرُفَتْ قبلاً بقاضيهــا ومُفتِيها

حتى قال رَحِمَه الله في فَيضِ مَشاعرِه:

مَعــاشِرَ الأهــلِ إنِّي عاجِزٌ أبداً ... عن شُكْــرِكم بعباراتٍ أُوَفِّيها
قد هَبَّ داعي النَّدَى منكم على عَجلٍ ... يدعُو الأفاضِلَ من أوســاطِ نادِيها
جــزاكم اللهُ عــنِّي كــلَّ عــارِفةٍ ... وزادَكــم بركــاتٍ منه يزْجِيها

وأما شِعرُ الرثاءِ، فقد تضمَّنَ أجملَ قصائدِ الشيخ الطريفي رَحِمَه الله؛ وذلك من آثارِ وفائه وثِمارِ برِّه بمن يُحِب، فقد رثى صاحبَه الشيخ (يوسف العالم) في قصيدتِه البائيَّة:

مُصابٌ له اهتزَّتْ مَشاعرُ ذي النُّهَى ... وأضحَتْ مِنَصَّاتُ المعارفِ تندُبُ!
وخَطــبٌ جسيمٌ للفؤادِ مُــرَوِّعٌ ... وجُرحٌ عمِيقٌ نَزْفُه ليــس يَنضُبُ!

وفي القصيدة عباراتٌ أنيقةٌ وعاطفة جيَّاشةٌ ومَعانٍ رقيقةٌ، كما في قوله رَحِمَه الله:

أيوسُفُ واحُزنَ القُــلوبِ عــليــكُم ... ويا ضَيعة العافي الذي جاء يطلبُ!
فيا لوعة القلبِ الكئيــبِ من الأسَــى ... ويا حــتترَّ أضلاعٍ غَدَتْ تتلهَّــبُ!
فقدناك فِقــــدانَ النســــيمِ وليتَنا ... فديناكَ بالأرواحِ نُعْطَى ونُوهَــبُ!

وقد ذكر الشيخ الطريفي مناقبَ صاحبه (العالِم)، لاسيما تأسيسه (كلية القرآن الكريم)، فقال:

فهــذا كتــابُ اللهِ شَيَّــدتَ صَــرْحَه ... لطالــبِ قــرآنٍ يجــــيء ويذهــبُ
وأعدَدتَ من دُورِ المســاجدِ مَنْهَــلاً ... يَعُبُّ به مَن جاء فيها ويشــــربُ
منابعُ عِلمٍ كم سعَيــــتَ تؤمُّــــها ... يَفِيضُ بها العِرفانُ والجَهلُ يُحجَبُ
فيا لهــفتا إنا فقَــدْنا مُجــــــاهِداً ... يخُطُّ دُرُوبَ المَجدِ دوماً ويكتــبُ

لئن غـــاب عن دنيا الوُجـودِ فكم له مآثرُ لا تبلى ولا هـــي تذهـــبُ!

وللشيخ الطريفي رثاءٌ لأخيه عبد الله محمد علي النويري في (معهد أم درمان العلمي) منها:

ولـو أنَّ نفسـاً تُفتَـدَى مِـن حِـــامِها لفَـدَّاكَ قـــومٌ أكرَمُـــون جَحـــافلُ

فيا رب أنزلْهُ مُـقاماً مُـــــكـرَّماً بجنَّاتِك العُـــليا بها الخـيرُ نائلُ

وأطفالُه (الزُّغبَ الحواصِل) عُمَّـــهم بألطافِك العُظمى بها الفضلُ شامـلُ

وعبارة (الزغب الحواصل) ضمَّنها الشيخ رَحِمَه الله من أبيات الحطيئة[1] التي استدرَّ بها عطفَ عمرَ رضي الله عنه بعد أن هجا الزبرقانَ بن عمرو؛ فسَجنَه عمر؛ فقال يَستَعْطِفُه ويذكرُ حاجةَ أبنائه إليه:

مـــاذا تَقـــولُ لأفـــراخٍ بـــذي مَـــرَخٍ زُغبِ الحَواصـــلِ لا مـــاءٌ وَلا

قال ابنُ حجر في ترجمة الحطيئة من (الإصابة): "قال أبو حاتم السجستاني عن الأصمعي: لما هجا الحطيئةُ الزبرقانَ استعدى عليه عمر؛ فدعا حسانَ بن ثابت فقال: أتُراه هجاه؟ قال: نعم وسَلَحَ عليه![2] فحبَسَه عمر؛ فقال وهو محبُوسٌ:

مـــاذا تقـــولُ لأفـــراخٍ بـــذي مَـــرَخٍ زُغبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجرٌ

ألقَيْتَ كاسِـبَهم في قَـــعرِ مُـــظلِمةٍ فاغفِـرْ عليك سـلامُ الله يا عمر!

فبكى عمر؛ فشفعَ فيه عمرو بن العاص؛ فأطْلَقَه".[3]

وللشيخ الطريفي رثاءٌ لشيخيه هاشم وأحمد العاقب في قصيدته الرائية، التي قال فيها:

أعَيْنَـــيَّ جُـودا واسـكُبا الـدمعَ دامِيـاً غزيراً كدفق الســارياتِ المـــواطِرِ

بُكـــاءً عـلى رُكنَيْن للعـلمِ هُـــدِّما فللهِ ما أقوى خُطـوبَ الـــدوائرِ

---

(1) الحطيئة جرول بن أوس بن مالك العبسي المتوفى سنة ٤٥ هـ.

(2) سبب هذا الحبس ما رواه ابن قتيبة أنه هجاه بقوله:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

فاستعدى عليه الزبرقانُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، وأنشده آخر الأبيات فقال له عمر: ما أعلمه هجاك؛ أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟ قال: إنه لا يكون في الهجاء أشدَّ من هذا، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فسأله عن ذلك، فقال: لم يهجه ولكنْ سلحَ عليه! فحبسه عمر". الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤٦-٣٤٧.

(3) الإصابة لابن حجر ١٧٧/٢.

فقدْناهما فقــدَ النَّــدَى لمــؤمّـلِ ومُرتقِبٍ عُقبَـى المُنَى والمصـــــائر
فيا لَهْفَ نفســي والحــوادثُ جمّـــَـةٌ وصَرْفُ الليالي ضــدَّ صفو الخواطِـر
خليليَّ مَنْ للعلــمِ من بعـد هاشـمٍ وأحمد محمود النُّــهَى والســـرائر؟
فهــذا له في الــفــقهِ فضلٌ مــؤكَّدٌ وذاك له في النحــو كلُّ المَـفــاخِر
فهل أنصَـــفَ الأقـــوامُ يومَ ترَحَّلا بإقبارهم وسطَ الحشا والضـــمائر؟!

وقد رثى الشيخ الطريفي أستاذ القرآن الشيخ محمد سليمان صالح بقصيدةٍ جميلةٍ، مطلعها:

يــا عـينُ جُـودي بالـدموعِ السـوافِحِ ويا نفسي دُوبي بين غــادٍ ورائحِ!
فما أفدَحَ الجُرحَ العـميقَ بفـقـــدِه وما أفظعَ الأهوالَ ذاتَ الجوائح!

وما أحسنَ قولَه فيها:

أخــا العلـمِ أوْحَشْـتَ الـديارَ وأهلَهـا ويا نفسي دُوبي بين غــادٍ ورائحِ!
وأوْحَشْتَ صَرحاً كان بالأمس حــافِلاً بكم وبآياتِ الكتـــابِ النواصِحِ
و(كـــليةُ القـــرآن) كنـتَ جَـمالَها ورُكناً لها رمزَ المعاني الصـــوالِحِ

حتى قال رَحِمَه الله:

وهـا هـم رِفـاقُ الـدرسِ يَنعَوْنَ شخصَكم بـأزكى المراثـي طيِّباتِ الـروائح
ولو كان في مَقدُورهـم أو بوُسْعِهـــم لأقبرْتَ ما بين النُّهى والجــوانِح!

ولكنَّ واسِطةَ العِقدِ في دِيوانِ الشيخ الطريفي قصيدتُه الحائية في رثاءِ شيخِه (محمد مجذوب مدثر)؛ فهي أجملُ قصائدِ الديوان وأروعُها لغةً، وأكثرُها سلاسةً، وأقواها عاطفةً:

مجـذوبَ أهـلِ الفضـلِ يـا رمـزَ التُّــقى اليومَ نذكرُ وجهَك الوضَّاحـــا!
اليومَ نذكرُكم ونذكرُ فيـــــــكُمُ شخصاً سما فوق النجومِ سَماحـا!
قد كُنتَ يا شيـــخَ المشايخِ مَعْـلَماً شخصاً سما فوق النجومِ سَماحـا!
ما إنْ ذكرتُكَ سيِّـــــدي إلا وقــد سَكَبَتْ عيوني دمعَها السَّحّـَاحـا
يا مُـــهجتي دُوبي عـــليه تحسـُّراً وتفَجَّري كَبِدي عليه جِـــراحا!

ثم طفق الشيخ الطريفي يذكر مآثرَ شيخِه وهَيبتَه ووَقارَه وملكاته التربوية، فقال:

يـا شـيخَنا قـد كُنـتَ حَبْـراً عارفـاً ... بـاللهِ تُرشِـد فـي الـورَى أرواحـا

كم من مُـريدٍ نالَ خـيراً وافِـراً ... من فَيْضـِكم وتسـلَّمَ المفتاحـا

وحباكَ مولاك المُهيمِـنُ هَيبـةً ... وكسـاكَ مِن ثوبِ الـوَقار وشاحا!

ثم ذكرَ فِقهَه وعِلمَه وفتواه بالمذهَبَين المالكي والشافعي ومجالِسَه العامِرة التي انقضَتْ وانصرَمَتْ، فقال:

هـذي مَجالِسُـكم يفـوحُ عَبيرُهـا ... مِسْـكاً ذَكِيّـاً أو شَـذًى فَوَّاحـا

تُفتـِي بها للشـافعيِّ ومـالكٍ ... من جاء يسـعَى غُدْوةً ورَواحـا

مَنْ لِلغوامِض والعَوائص بعـدَكم ... يُجـلي القِناعَ ويُبهـِرُ الشُّـرَّاحا؟

ثم ختمَ قصيدتَه بتعزيةِ الدنيا في شَيخِه الذي جَمعَ بين العِلم والعَمل، فقال:

رُزئـتْ بـه الـدنيا ورُوِّعَ أهلُـها ... وتـصَـدَّعَتْ أكبـادُها أتراحـا!

هَبَّ النسيمُ لكـم يؤُمُّ رحـابَكم ... مـا انْهَـلَّ مُنسَـكِبُ الغَمـامِ صَـباحا

يروي ضَريحاً ضَمَّ جِسْـماً طاهِـراً ... وإمـامَ هَـدْيٍ لم يَزَلْ مِصـْباحا!

ولشعر الشيخ الطريفي أغراضٌ أخرى متفرِّقة، منها الشوق والحنين، ومنها الشكر والثناء، ومنها الشكوى، ومنها قصائد إسلامية أخرى.

ففي غَرَض الشوق والحنين، نظمَ الشيخ الطريفي قصيدةً داليةً يشكو غُربتَه ويَحِنُّ إلى أهلِه، وهي من أرقِّ قصائدِه وألطفِها، سمَّاها: (ذكرى وحنين إلى الأهل والبنين):

لـدَى الـنفس يـا نـورُ حنـينٌ يُـردِّدُ ... ودارٌ بهـا نـور تنُـوءُ وتبعـدُ

هَبَّ النسيمُ لكـم يؤُمُّ رحـابَكم ... مـا انْهَـلَّ مُنسَـكِبُ الغَمـامِ صَـباحا

ترامَتْ بنا الأقـطارُ والقلـبُ مُشْفِقٌ ... وحالَتْ وهادٌ شاسِـعاتٌ وأنجُدُ

ويستعير الشيخ من قاموس امرىء القيس، فيقول:

وكـادتْ غـداةَ البَـيْنِ والبَـيْنُ مـؤلِمٌ ... تُصَـدَّعُ أكبـادٌ لـنا وتُبَـدَّدُ

وهي قصيدةٌ تُبيِّن ما كان يُعانِيه الشيخ من مُعالَجةِ دواوين الشعر القديم؛ لاسيما شعر الفراق والنَّوى الذي تنفطر منه أكبادُ العشاق:

يُـذكِّرُني التَّحنـانُ أهـلاً ومَرْبَعـــاً وعَيشـاً كريمـاً بالفضـائلِ يُحمَـدُ
تُذكِّــرني الأيامُ لُـــطفـاً ورقـــةً عَطفـاً عظيمـاً بالحنـانِ يؤكـدُ
وإنِّي لَتَعْـرُوني إذا ما ذكـــــرتُهم أحاسيسُ وجدانٍ تُقِيـــم وتُقْعِدُ

فيا لِي مِن الذِّكرَى ويا لِي من النَّوَى ويا لي مِن التبريح يسمُو ويصعدُ

ثم يتوجَّهُ الشيخ بالتضرُّع إلى ربِّه أن يجمعَ شملَه بأهلِه ويُلاقيه بولدِه:

ويـا رُبَّ شـخص بـات ينـدُب حظَّـه فجاءتْهُ ألطـافٌ من اللهِ تُنجِـدُ!
فأضحى مُقـيماً بين أهـلٍ ومعشرٍ وطاب له المثوَى الذي كان يَنشُدُ!

ثم يُودِّعُ الشيخُ قصيدتَه بمشاعرِ الحنين والشوق الدفين:

فهل مـــن سبـــيلٍ يـا نَـوارُ لِقُربنـــا ليُتحِفَنا بالأُنسِ طِفـلُكِ أحمـــدُ؟
لقـــد مرَّ طـــيفٌ من خَيالِك مُـسرِعاً بوَصْلِي وشـوقِي زائدٌ يتجـــدَّدُ!
فيا رب ثَبِّتْ مَن جفـا عينَه الكـــــرَى وأمسى قريحَ الطرفِ وهو مُسَهَّدُ!
عســـى الله أن يأتي بِغَـــوثٍ مُعَجـــلٍ به تنقضي الأوطارُ والنفسُ تَسْعَدُ
لـــعلَّ إلـهَ العَـــرشِ يُدْنِي مَـــزارَنا ويُطفِيءُ ناراً في الحَشـــى تتوقدُ!

ومن قصائد الشيخ الطريفي في الشكر والثناء: قصيدتُه في (تحية أطباء مستشفى الملك خالد)، مطلعها:

تحيـــة وُدٍّ للأطـــباءِ الأمـــاجـدِ بمستشفى ذي الفضلِ والمجدِ خـــالد

وكذلك قصيدته (تحية للطبيب الدكتور عبد الله الشائع):

نُحَيِّـــي الطبيـــبَ أبـــا جـــابرٍ نُحَيِّيه من حـــاذِقٍ مـــاهِـــــرِ!
نُحَيِّـــي التـواضعَ في شـخصـــهِ ونُكـــثِر من ذكـــرِه العـــاطِرِ!
عرفْناه رَمزَ الشـــبابِ الطمـــــوحِ ورمـــزاً لِمُســـتقبَـــلٍ زاهـــــرِ!

وما أحسَنَ قولَه في الثناءِ:

عرفنـــاه شخصـــاً ذكـــيَّ الفـــؤاد حميـــدَ الســـريرةِ والظـــاهرِ
وتلك المَـــخـــائلُ في وجـــهـــه تُشـير إلى قلـبه الطـــاهـــرِ!

ثم شهدَ له الشيخُ بالذكاءِ والنجابة بقولِه:

لقد كان مِن بين أقرانِه ... مِثالَ الفتى النابغِ النادرِ
فأنت لدى الأمَلِ المُرتَجَى ... لنا وللوَطنِ العامرِ

حتى قال رَحِمَه الله:

بقيتَ تُداوي الأليمَ الكلِيمَ ... فيأخذُ مِن عَطفِكِ الغامرِ
فدُمْ خالداً يا طبيبَ النفوسِ ... فدُمْ خالداً يا طبيبَ النفوسِ

ومن ألطفِ قصائد الشيخ الطريفي قصيدته (الطريفي يندب رباعيته السفلى)، وهي قصيدةٌ ظريفةٌ في موضُوعِها، لطيفةٌ في ألفاظِها ومعانيها:

تعالَوْا رِفاقَ الصِّدقِ واستمِعوا معاً ... مَقالي بما قد أحْدثَ الملوان!
تساقطَت الأسنانُ منّي كأنما ... تساقطَ عِقدٌ من فُصُوصِ جُمانِ!
وولَّتْ رباعاتي وحلَّ محلَّها ... بدائلُ لا تقوى لِسَدِّ مكاني!
فأضحى فمي من فقدِها متأثِّراً ... يُعاني ويشكو ما جَنَى الحَدَثانِ
وهذي شِفاهي أصبحَتْ تفقد الفُوى ... على ضبطِ ألفاظٍ وحُسن بيانِ!
وقد أظهرَتْ مني النواجذُ حسرةً ... تُعبِّرُ عن فَقدٍ وعن أحزانِ
وعَجَّ لساني بالشَّكاةِ تأفُّفاً ... على عَزْلِ أسنانٍ وجور زمانِ
لقد كُنتِ يا أسنانِيَ البيضَ زينةً ... لِثَغري ومِعْواناً لِنُطقِ لساني
فيا رب عَزِّزْ ما بقي من نظامِها ... دواماً وثَبِّتْ باليقينِ جَناني!

وللشيخ الطريفي رحمه الله قصائد إسلامية، مثل قصيدته في (هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة)، ومنها قوله:

وأسَّسَ للإسلامِ ركناً ودولةً ... وأيَّدَ شرعَ اللهِ والأمرُ حازمُ
فيا أيها الأقوامُ إنَّ تُراثَكم ... عليه لِشاراتِ الجلالِ تمائمُ

وتشتمل القصيدة على استنهاضِ لشبابِ الأمة:

فهل يا بني الإسلامِ مِن بينِكم فَتىً ... له عزَماتٌ صادِقاتٌ حَواسِمُ!
يقومُ فيبني مَجدَ آبائه الأُلى ... بسُلطانِهم بأسٌ شديدٌ وصارمُ

وهذا شـــبابُ اليـومِ يـرقص لاهياً — فكيف بكم والخطبُ أسودُ فاحِمُ؟
فَهُبُّوا حُماةَ الـــدينِ من غفلاتِكـــم — ورُدُّوا إلى الإصلاحِ مَنْ هـو آثِمُ!

ومن أجملِ قصائدِ الشيخ الطريفي قصيدته (من ذكرى فلسطين)، فهي تُبيِّن حُرقة الشيخ وهُمومَه الإسلامية:

فلســـطينُ يـا أرضَ المَعـادِ كفـــاكِ — بأن يعتلي الغُصّـَـــابُ رَحبَ فِناكِ!
ذكرناكِ والـــحزنُ العميـــقُ مُخَيـــمٌ — له وَخزةٌ في البَســـطِ والإمـــساكِ
ذكَرْنا رِحابَ القُدسِ فيها طـــهـــــارةٌ — ومَهدٌ لأهـــــلِ الفضـــلِ والنُّسَّاكِ
ذكَرْنا العـــَذارى الداميـــاتِ قلـــوبُها — من الحُزنِ والجفنُ المُقَـــرَّحُ باكـــي!

وهذه القصيدة تتضمنُ عاطِفةً صادقةً ورُوحاً إسلاميةً عالِيةً، كما في قولِه رَحِمَه الله:

فـوا حُرقـةَ القلـبِ الكئيـبِ مـن الأسَـى — ويا وَصْمةَ العارِ الفظيعِ القـــاسي!
فهذا صـــبيٌّ في الع،،،راءِ مُشَـــــرَّدٌ — يُقاسي صُنُوفَ الذُّلِّ تحت سَـــماكِ!
وذاك مُسِـنٌّ في الخِـــيامِ مُـعـَذَّبٌ — يذوقُ مَريرَ العـــيشِ فوقَ ثَـــراكِ!
أتبقـــى فلـــسطينُ الســـليبةُ دائماً — تَحِلُّ عـــلى الإنقـــاذِ والإدراكِ؟
يَعِيثُ بنو صُهـيونَ فيها عـــلى المَـــدَى — فساداً يدوسُـــون المَقـــامَ الزاكي!

وما أحسنَ قولَه فيها:

فِلسـطِينُ يـا مَهـدَ الرسـالةِ والنُّهَـى — ويا مَهبَطَ الإيحـاءِ والأمـــلاكِ!
فإنك مـــأســـاةٌ لقـد طال ـعهدُها — وناءَ بقاسـي حِـملِها مَعْـــنـاكِ!

ثم توجَّهَ الشيخُ يدعُو المسلمين إلى استِنقاذِ المسجد الأقصى الأسِير:

فيـا إخـوةَ الإسـلامِ هُبُّـوا مـن الكَـرَى — وخلُّوا الهُوينى للضعيفِ الشـاكي!
وصُولُوا على الأعداءِ صَولةَ حـــازمٍ — وقولوا لأرضِ القدسِ: نحنُ فِداكِ!
فإنَّـا قـد عقَـدْنا العـزمَ واللهُ ناصِـرٌ — لِنـــثأرَ ممَّن قـد أباحَ حِمـــاكِ!
فـــأرواحُنـا مَـــبذُولةٌ ودِمـاؤنا — تَجُدُّ أُصـولَ الكُفرِ والإشـــراكِ

ألا رحمةُ الله على الشيخ الطريفي، وجزاه عن هذه الأمةِ خيراً؛ فقد كانت قصائدُه من دلائلِ صِدقِه، وكان شِعرُه صُورةً من مَشاعره، رَحِمَه الله. ووالله ما يَمُرُّ بِيَ البيتُ الجميل أو القصيدة البديعة؛ إلا تَذكَّرْتُ الشيخَ الطريفي، وحَنَنْتُ إليه، ووَدِدْتُ لو أنْشَدْتُها بين يديه رحمةُ الله عليه. فأقولُ كما قال مُتمِّم بن نُوَيْرَة يرثي أخاه مالكاً:

وقـــالوا: أتبكـــي كـــلَّ قبـــرٍ رأيتَـــه ... لِقَبْرٍ ثَوَى بين اللّوى فالدّكـــادكِ؟
فقلتُ لهـــم إنَّ الأســـى يبعَثُ البُكَا ... ذَرُوني فهـــذا كلُّه قَبرُ مـــــالكِ!

خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ وَلَدِ آدم، وعلى آلِه وصحبه الطيِّبين الطاهِرين، وبعد، فهذا (الشيخ الطريفي لغويا وشاعرا). وقد اشتمل على مبحثين: المبحث الأول: الشيخ الطريفي واللغة العربية، المبحث الثاني: الأغراض الشعرية لقصائد الشيخ الطريفي.

وهي كَلِمةٌ وَفاءٍ وتعريفٍ بشيخ عُلماءِ السودان العالِمِ العامِلِ محمد علي الطريفي رَحِمَه الله؛ لإحياءِ القُدوة في العِلمِ والعَملِ في حياتنا، وهي غَيْضٌ مِن فَيضِ عِلْمِه الكثيرِ وخُلُقِه الوَفير! ووالله لو كتبتُ مجلَّداً في مآثِرِ الشيخ الطريفي ما وفَّيتُه حقَّه عليّ؛ فإنّ فضلَ العالِمِ والمُربِّي على الطالِبِ كفضلِ الوالد. ولقد كان الشيخ الطريفي رَحِمَه الله بمثابةِ الوالدِ بعد وَفاةِ والِدِي؛ وإنما هي نَفثَةُ المَصْدُور، كما قالَ دعبلُ الخزاعي:

حَنَّطتَـــهُ يـــا نَصـــرُ بالكـــافورِ ... وَرَفَعتَهُ لِلـمَـنْزِلِ المَهـــجورِ
هَـــلا بِبَـــعضِ خِصالِهِ حَنَّـــطتَهُ ... فَيَضُوعَ أُفـقُ مَنـــازِلٍ وَقُبُـــورِ
تَاللّهِ لو بِنَســـيمِ أخـــلاقٍ لَـــهُ ... نُعزى إلى التَقـديسِ
طَيَّبتَ مَن سَـكَنَ الثَـــرى وَعَلا الـرُّبا ... وَالتَـطـهيرِ
فَاذْهَبْ كَما ذَهَـــبَ الشَـبابُ فَإِنَّهُ ... لَتَـــزَوَّدُوهُ عُدَّةً لِلنُشـــــورِ
واذْهَبْ كَما ذَهَبَ الـــوَفاءُ فـــإِنَّهُ ... لَتَـــزَوَّدُوهُ عُدَّةً لِلنُشـــــورِ

وَاللهِ مـــــا أبَّـــنتـــُهُ لأزيـــــــــدَهُ عَصفَت بِهِ ريحا صَبـــــاً
وَدَبـــُور
شَرَفاً وَلَكِن نَفثَةُ
المَصـــــــدُور!(1)

أسـأل الله تعـالى أن يُكرِمَ نُزُلَـه، وأن يرفَـعَ درَجتَـه فـي جنـةِ الفردوس، وأنْ يجمَعَني معه في مَقعَدِ صِدقٍ عند مَليكٍ مُقتَدِر. والحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله، وعلى آلِه وصَحبه ومَن والاه.

(1) ديوان دعبل بن علي الخزاعي ٨٨/١.